المكونات المادية للمسجد وأثرها التفاعلي

The physical components of the mosque and its interactive effect

د.عدنان مهنديس

mhndysdnan@gmail.com

كلية الآداب سايس مدينة فاس المغرب

تاريخ الاستلام: 2019/10/07 تاريخ القبول للنشر: 2019/12/27

الملخص :

تتعدد المكونات المادية في مؤسسة المسجد وتنقسم باختلاف حجم وظيفتها في النشاط المسجدي وكذا حجم تاثيرها في التفاعل المسجدي المرصود، ويمكن تقسيمها الى مكونات أساسية ومكونات ثانوية ولعل من أهم هذه المكونات المادية:

المحراب وما يحتمله المكون من دلالات لغوية وتاريخية يمكن من خلالها أن يتم التأطير التفاعلي لهذا العنصر.

الصومعة وما تحظى به من أهمية تواصلية متعددة الأبعاد بما يحقق حاجة ومصلحة المجتمع.

المقصورة وما تقدمه من خدمات وظيفية تغذي الحاجة التواصلية لمؤسسة المسجد ورواده.

المنبر ورسالته الكبرى في توجيه التفاعلات المسجدية وتسديدها نحو الخير والصلاح.

الزخارف المسجدية وما يكتنفها من نقاش تفاعلي في الشق التواصلي الجمالي سواء موافقة أو معارضة.

ملخص باللغة الانجليزية:

The materialistic components of the mosque and their interactive effect

The mosque, as an institution, features various materialistic components. Each component can be classified or divided according to the degree of its function within the mosque's activities and the degree of its influence on targeted interactive goal .

These materialistic components can be primary or secondary. The most important primary components are the following:

*"Almihrab": (a niche in the wall where the imam performs the prayer) Its linguistic and historical significance can be a channel for framing interaction.

*The minaret. This well_ regarded tower and its multidimensional interactive importance can help in satisfying society's needs and interest.

*Maqsurah: The functional services this component offers nurture the communicative needs for the institution of the mosque and its visitors.

*Alminbar. This puplit where the orator stands has a great message to convey: Guiding all forms of interaction in the mosque and targeting it towards goodness and rightness.

*Almasjid's decorations: from an aesthetically communicative perspective, one can see that these artistic decorations trigger a for_ or_ against interactive discussion.

مقدمة:

إن الحديث عن المكونات المادية لمؤسسة المسجد يمكن من تقسيم هذه المكونات إلى قسمين: **رئيسة**[1] **ومضافة**[2]، ويرجع هذا التقسيم إلى معيار التوفر في جميع المساجد من عدمه، دون مراعاة حجم الجوانب التفاعلية التي تكتنف هذه المكونات المادية، ولذلك فإنني عالجت في هذه العناصر خمسة مكونات لا أراعي فيها الانتماء إلى المكونات الرئيسة أو المكونات المضافة، بقدر ما أولي فيها الاعتبار إلى تميزها بتعدد الجوانب التفاعلية في تواجدها بالمؤسسة المسجدية.

العنصر الأول: المحراب.

إن معالجة العناصر التفاعلية المرتبطة بالمحراب تنطلق من تجلية العناصر لهذا المكون المادي الذي يعتبر من أهم المكونات المادية للمسجد، وبالتالي فإن هذا الأمر يتطلب تحديد الدلالات التي يحملها المحراب، واكتشاف أوجه توظيف القرآن له في سياقات خاصّة، مع المقارنة بين أنواع المحاريب التي عرفتها مساجد المسلمين في شتى ربوع العالم الإسلامي وتوضيح بعض الشبهات والقضايا المتعلقة بهذا المكوّن.

يقول أبو منذر (سلمة بن مسلم العوتبي الصُّحاري) (511هـ): 'المحراب مع العامة اليوم: مقام الإمام في المسجد، وكانت محاريب بني إسرائيل **مساجدهم** التي يجتمعون فيها للصلاة؛ قال الأعشى:

وترى مجلساً يغصَّ به المحـ .... ـراب للقوم والوجوه رقاق

قال أبو عبيدة: المحراب عند العرب **سيد المجالس ومقدَّمها وأشرفها**، وإنما قيل ل**لقِبْلة** محراب لأنه أشرف مواضع المسجد، ويقال **للقصر** محراب لأنه سيد المنازل؛ قال امرؤ القيس:

وماذا عليه أن يروض نجائباً .... كغزلان رمل في محاريب أقوال

ويروى: أقيال، يعني قصوراً.

قال (الأصمعي): المحراب عند العرب **الغرفة**؛ قال:

ربَّة محراب إذا جئتها .... لم ألقها أو أرتقي سلَّماً

أراد: الغرفة؛ ومنه قوله تعالى: {إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ} والتسوُّر يدل على ما ذكرنا.

قال أبو عمرو: دخلت محراباً من محاريب حمير، فنفح في وجهي ريح المسك.

قال أحمد بن عبيد: المحراب **مجلس الملك**، سمي محراباً لانفراد الملك فيه، لا يقربه أحد، و**يتباعد** الناس منه؛ وكذلك محراب المسجد **لانفراد الإمام فيه**، وفلان حرب لفلان إذا كان بينهما **عداوة**'[3].

ويقول محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (الرازي) (666هـ): '(المحراب) **صدر المجلس** ومنه محراب المسجد، و(المحراب) أيضا **الغرفة**. وقوله تعالى: {فخرج على قومه من المحراب} [مريم: 11] قيل من **المسجد**'[4].

يتبين إذا من خلال النصيّن السابقين أن دلالات المحراب في اللغة والاستعمال القرآني هي على الشكل الآتي[5]:

-المصلى والمسجد.

-اتجاه القبلة والتجاويف الموجودة في المعابد.

-أرفع المواضع وأشرف المجالس.

-القصور والمساكن، كما في قوله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام: "**يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**" (**سورة سبأ: الآية 13**).

-الشجاعة وموضع الانفراد والتباعد، ولا تنفي هذه الدلالة كون المحراب له هيبة ومكانة خاصة كما قال ابن الحاج المالكي: 'المحراب له هيبة ولا يدخله أحد في الغالب سيما الصبيان الصغار ومن لا يؤبه له'[6].

-العداوة والمحاربة مع الشيطان.

وتتجه هذه الدلالات نحو اتجاهين: **اتجاه مادي واتجاه ثقافي معنوي،** فالمحراب المسجدي مكون مادّي خاص له شكل عبارة عن تجاويف في مقدم البناء المسجدي المخصص للصلاة، حيث وظيفته الأساسية هي التعبير الرمزي عن مكان تواجد الإمام أثناء أدائه للصلاة، بالإضافة إلى الدلالة على اتجاه القبلة، والتي يعتبر استقبالها ركنا من أركان الصلاة، أما الاتجاه الثقافي المعنوي لمكون المحراب فيتجلى في شرف موضعه ومنزلته الرفيعة والتي يتعدى اكتسابها إلى الإمام باعتبارها صاحب هذا المكان وسيّده، كما أن الموضع يجعل صاحبه في انفراد وتمايز وتباعد عن باقي المصلين المتواجدين معه في الصلاة

وذلك حتى يحصل الائتمام والاقتداء اللازمين في هذا الموطن، ويحصل نوع من المحاربة والتباغض مع الشيطان للمتواجد بهذا المكان، [فكأن ملازمه يحارب الشيطان والشهوات][7]، لأن سبيل الشيطان هو أن يؤز الإنسان إلى الشر ويسعى في جلبه إليه بكل ما أوتي من قوة، ثم لا يفوتني الإشارة إلى دلالة الشجاعة، حيث إن المحراب يكسب صاحبه شجاعة نفسية لمواجهة المواقف الصعبة، فأهل المحراب يتربون على الشجاعة منذ أول اتصال لهم بهذا المكان، لذلك فأول لقاء للإمام مع المحراب يعاني فيه شعورا نفسيا أقرب للخوف والارتباك نظرا لهيبة المكان وجلالة قدره، ثم لا يلبث حتى تزرع فيه مشاعر القوة والشجاعة تدريجيا حتى يصير مع مرور الوقت أسدا في محرابه.

إذن؛ فوجود المحراب بالمسجد له مجموعة من الفوائد والأبعاد التفاعلية والتواصلية والتدبيرية، والتي يمكن أن نذكر من بينها:

1-**دخول الإمام فيه واقتصاد مكان** لعدد من المصلين[8]، وذلك أن المسجد يربح صفا من المصلين بسبب تواجد الإمام في المحراب، فإذا غصّ المسجد بالمصلين تواجد هذا الصف بهذا الأمر داخل المسجد عوض الصلاة خارجه، مما يقيهم في ذلك من حر الشمس أو برودة الطقس الخارجي.

2-**تحديد جدار القبلة**، لأنه يمكن أن يحلّ بالمسجد شخص غريب ليس من أهل البلد، فلا يدري حين ذلك أين اتجاه القبلة من أجل أداء واجب صلاته، فكان هذا التجويف المشكل للمحراب في هذا الجدار عاملا مميزا لهذا الجدار المشير للقبلة عن باقي الجدران الأخرى التي لا ينبغي التوجه إليها.

3-**تسهيل رؤية الإمام وإدراك حركاته في الصلاة** بشكل جيد ومتاح، بخلاف ما إذا تواجد بجنبات المسجد فإنه لن يتمكن من متابعته وملاحظة حركاته إلا من يوجد مباشرة خلفه أو بالقرب منه، ولذلك أصبحنا نلاحظ توظيف بعض المساجد المكون من طوابق

للكاميرات التي تبث بالصورة المباشرة أداء الإمام للصلاة، حتى يحصل ركن المتابعة بشكل جيد في حال السهو أو اشتباه الأمر على المصلين البعيدين منه.

4-**تضخيم صوت الإمام أثناء قراءته** في الصلوات الجهرية[9]، خاصّة في المساجد التي تفتقد لتوفر مكبرات الصوت، لأن هذه الوسيلة الأخيرة تكفينا هذه الفائدة عند توفرها، نظرا لأن تأثير صوت الإمام وحسن انتشاره من لوازم الخشوع والتدبر في قراءة الصلاة.

يدلنا البحث عن تاريخ هذا المكون في المسجد النبوي على عدم توفره في العهد النبوي، يقول الأستاذ سليمان بن صالح العبيد: 'لم يكن في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم محراب مجوف ولا في عهد الخلفاء الراشدين، وإنما أقيمت مقصورة من الطوب حول منطقة المحراب في توسعة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وجعل لها كوى ينظر الناس منها إلى الإمام، وذلك لحمايته في الصلاة، وفي عمارة الوليد للمسجد وضع محرابا مجوفا في مصلى عثمان عام (88هـ-91هـ)'[10]، وحكى نفس المصدر في وصف المسجد النبوي لما صار يتسع لأكثر من مئة وستين ألف مصلّ أنه كان له محرابان في المصلى: **المحراب النبوي والمحراب العثماني**[11]، فالأول في الروضة الشريفة على يسار المنبر، أمّا الثاني ففي حائط المسجد القبلي وهو الذي يصلي فيه الإمام حاليا، وقد أضيف إلى هذين المحرابين أربعة محاريب أخرى وذلك خلال العمارات التي تلت تلك العمارة:

[-**المحراب السليماني** أو الحنفي: غربي المنبر.

-**محراب فاطمة** داخل المقصورة الشريفة.

-**محراب التهجد**.

-**محراب شيخ الحرم** خلف دكة الأغوات، وقد أُحدِث في العمارة المجيدية][12].

يعتبر هذا التعدد في عدد المحاريب الموجودة بالمسجد النبوي تعددا محمودا لا يضر بمقصد رسالة المسجد الرامية إلى توحيد صفوف المسلمين، حيث إن المحراب الرسمي المخصص للإمام هو المحراب العثماني، وما عداه فهو خارج عن هذا الإطار، إلا أن له

وظيفته التفاعلية المتجلية في التواصل **التاريخي** الذي يدل على عمق اهتمام وعناية ولاة الأمور المتعاقبين على تقلد زمام الحكم بتوسعة وتنظيم المسجد النبوي وحسن عمارته، حيث تظل هذه المحاريب من الآثار الحية الشاهدة على ما كان عليه المسجد من قبل، وبالمقابل يمكن أن يكون أمر تعدد المحاريب في المسجد الواحد مظهرا سيئا لهذا الإجراء لما يعود به من تفرقة وتصدع في وحدة الجماعة المسجدية، فيكون عندها هذا التعدد مرتبطا بشكل مباشر بتعدد المذاهب والتي تختلف مع بعضها البعض في فقه الصلاة، فيختص كل محراب بمذهب فقهي من المذاهب، حيث يصلي فيه إمام المذهب بالذين يتبعون نفس المذهب الذي يوحد تصورهم الفقهي لفعل الصلاة، ولا يخفى على ذوي البصائر ما لهذا المظهر السيئ من تأثير سلبي على وحدة المسلمين وإسهامه القوي في إضعاف كلمتهم.

ويمكن القول إن المحراب قد تحول في العصر العباسي إلى عنصر معماري من عناصر التصميم الهندسي للبناء، ولعل هذا من التأثير التفاعلي للمكونات المادية للمسجد في محيطه الخارجي، يقول الأستاذ (نجاة يونس الحاج محمد): 'وقد استعملت المحاريب بكثرة بحيث إنه لم يكن يخلو مسجد أو مدرسة أو ضريح من هذا العنصر المعماري'[13].

أما عن نشأة المحراب ومشروعيته فقد حدث هنالك جدل عريض حولها، ودخل في خضم هذا الجدلالفقهاء والمؤرخون والمستشرقون وغيرهم بين مبيح ومانع، حتى وصل الأمر إلى أن ألف في ذلك بعضهم مؤلفا خاصا لمناقشة مشروعية هذا المكون من عدمها، من ذلك تأليف الإمام جلال الدين السيوطي (911هـ) لكتاب في هذا الصدد عنونه بعنوان يفصح فيه عن نتيجة بحثه ورأيه في تواجد هذا المكون المادي بالمسجد وهو: **[إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب]**، والذي يسوق فيه مجموعة من الآثار الحديثية التي تدل على منع اتخاذ المحاريب لعلة **التشبه بكنائس النصارى** في اتخاذها، كما نجد الإمام الزركشي ينقل عن بعض السلف كراهة هذا الأمر فيقول: 'كره بعض السلف

اتخاذ المحاريب في المسجد، قال الضحاك بن مزاحم: أول شرك كان في أهل الصلاة هذه المحاريب، وفي مصنف عبد الرزاق عن الحسن أنه صلّى واعتزل الطاق أن يصلي فيه[14]، وقال: كره الصلاة في طاق المسجد سعيد بن جبير ومعمر والمراد بطاق المسجد المحراب الذي يقف فيه الإمام ..."[15]، والقول المنصف الوسط الذي تطمئن إليه النفس في قضية اتخاذ المحراب هو ما قرره الإمام المالكي (ابن الحاج) إذ يقول: "ولم يكن للسلف –رضوان الله عليهم– محراب وهو من البدع التي أحدثت لكنها **بدعة مستحبة** لأن أكثر الناس إذا دخلوا المسجد **لا يعرفون القبلة إلا بالمحراب فصارت متعينة**. لكن يكون المحراب على **قدر الحاجة** وهم قد زادوا فيه زيادة كثيرة، والغالب من بعض الأئمة أنهم يصلون داخل المحراب حتى يصيروا بسبب ذلك على بعد من المأمومين وذلك خلاف السنة. ثم إنه يخرج نفسه بذلك من الفضيلة الكاملة لأن باقي المسجد أفضل منه. ألا ترى أن علماءنا رحمة الله عليهم قالوا فيمن اضطر إلى النوم في المسجد أنه ينام في محرابه لأنه أخف من باقي المسجد بل ينبغي له أنه **إذا كان المسجد لم يضق بالناس فلا يدخل الإمام إلى المحراب**"[16].

يتبين إذا من خلال هذا النص أن الضابط في اتخاذ المحراب هو المصلحة الراجحة والتي لها بعد تفاعلي متعدّد يتجلى في إرشاد الناس وحسن اصطفافهم وانتظامهم داخل المسجد والحرص على تكثير أقصى عدد ممكن منهم عند الامتلاء، ولا شك أن هذه المصلحة الحاجية تقدر بقدرها فلا ينبغي التوسع بها إلى ما لا تدعو إليه الحاجة أو ليس من ورائه قصد محمود، كالتوسع في الأشكال والزخارف مما ليس من جوهر مقصد اتخاذ المحراب في الأصل، أو توغل الإمام داخل هذا المحراب دون حاجة تدعو لذلك.

وليس هناك اتفاق تام على الهيئة التي يوجد عليه المحراب بين المسلمين، حيث هناك فرق كبير بين المحراب السنّي والمحراب الشيعي، فالمحراب السني بسيط الشكل ذو تجاويف في اتجاه القبلة تدل على مكان ركوع وسجود الإمام في نفس مستوى ارتفاع الأرض المماثل

للذي يسجد عليها باقي المصلين، أما المحراب الشيعي فمختلف عن ذلك تمام الاختلاف، يمكن تركيز أهم صفاته فيما يلي:

[-مساحة مستطيلة تأخذ هيئة منامة المتوفي أمام المحراب وهي مرتبطة بالفكر العقدي الشيعي الاثنا عشري، حيث تشير إلى النيابة عن الإمام الأعظم علي رضي الله عنه بالإضافة إلى فكرة العصمة.

-استواء المحراب في التطابق الشكلي مع المساحة المستطيلة العمودية عليه.

-رمزية الحفرة في الدلالة على مرقد الإمام الغائب المهدي المنتظر الذي يملأ الأرض عدلا، فهي تشير إلى غيبته ومكانته الوازنة في المعتقد الشيعي.

-دلالة الحفرة على تواضع الإمام، فهو النائب الصامت الذي لا يرقى التقدم على الصفوف بل يقف فقط على المرقد في الإشارة إلى غيبته][17].

ويلاحظ أن المحراب الشيعي-رغم عدم التسليم بصحة المعتقدات التي تكتنف وجوده- له تفاعلات **غيبية ورمزية**، أي من خلاله تصدر رسائل توضح الفكر المذهبي العام للشيعة والأسس التي يقوم عليها، فالمحراب الشيعي له صلة وثيقة بعقيدة الشيعة في شقها الإمامي، وبالمقابل نجد المحراب السني لا يرتبط بعنصر العقيدة إلا في ارتباط غير مباشر بالدلالة على القبلة التي يتوجه إليها المسلمون في صلاتهم، ونجد أن البعدين **التربوي والتنظيمي** يغلبان على وظيفة هذا المحراب.

وتستوقفنا الشبهة التي تثار حول المحراب من طرف المستشرقين، حيث يزعمون أن أصل نشأته مستورد من الكنائس لكونها تحتوي هي الأخرى على محاريب، يقول الأستاذ (نجاة يونس الحاج محمد): "أجمعوا[18] على أن المحراب المجوف أُخِذ إما من الكنائس المسيحية أو من الهياكل اليهودية أو من المذابح القبطية، ولكن أغلبية الآراء تشير إلى أنه أُخذ من الكنائس المسيحية"[19].

وهذا الكلام فيه وجهة نظر من جهتين، فمن جهة أولى نجد هنالك عدم الاتفاق على مصدر الاستيراد بخصوص هذا المكون، إذ لو كان الأمر محسوما لما وقع التردد والاختلاف، ومن جهة أخرى ندرك أن هنالك اختلافا كائنا بين المحرابين من حيث الشكل الظاهري، يقول الأستاذ نجاة يونس الحاج محمد مبينا هذا الاختلاف الشكلي: 'المحراب المجوف صغير يكفي لركوع وسجود الإمام فيه، بينما مذبح الكنائس واسع يسهل على القائم بالشعائر الدينية أن يمشي فيه بسهولة ذهابا وإيابا، والمذبح يرتفع عن أرضية الكنيسة بينما المحراب بمستوى أرضية المصلى، وكذلك ينظر له من قبل المسيحيين بنظرة تقديس وإجلال، بينما المحراب بنظر المسلمين يعتبر كباقي أجزاء المسجد، وذكر ابن الحاج أن المحراب أقل أجزاء المسجد قداسة، فمن اضطر إلى النوم في المسجد فلينم في محرابه[20] لأنه أخف من باقي أجزاء المسجد'[21].

ثم ليس مجرد التشابه في شكل التجاويف مسوغا للقول بأنه مستورد من الكنائس، حيث يمكن حينها أن نناقش أمرا جزئيا وقع فيه التشابه والاستيراد (التجويف) ويأخذ حكما خاصا دونما التعميم على المحراب بأكمله، لأن هناك فرق بين القول بالاقتباس الكلي وبين القول باقتباس جزء معين من هذا المحراب، ولكل حالة مقامها وحكمها الخاصّ.

فنشوء محراب القبلة يختلف كل الاختلاف عن الحنية أو الشرقية وقدس الأقداس في الأديان الأخرى، فقدس الأقداس عند الوثنية غرفة في نهاية المعبد لا يدخلها إلا الكاهن الأعظم، أما قبلة الإسلام فهي تعبر عن التوحيد ليتجه كل المسلمين إلى البيت الحرام[22]، إلا أنه ينبغي على المسلمين خاصة من أتباع السنة المحمدية أن يتوخوا البساطة في اتخاذ المحراب دون تجاويف أو زخارف مشابهة لما عليه كنائس النصارى، حت لا يقع التشبه بأهل الملل الأخرى، وقد ورد النهي عن هذا التشبه في نصوص الشارع الحكيم، يضاف إلى ذلك ما تفضي به الزخارف إلى إلهاء المصلين وصرفهم عن الخشوع[23].

وإن من ضوابط اتخاذ المحراب عند أهل القبلة ألا يكون مرتفعا على أرضية المسجد، أي في مستواها حتى لا يحصل هنالك تميز لمكان الإمام عن مكان المصلين.

فالحاصل أن المحراب في المنظومة الإسلامية يختلف تمام الاختلاف عن المحراب في غيرها من الديانات، سواء من حيث التركيب أو الشكل المادي؛ أو من حيث الوظيفة أو النشاط المنتظر منه؛ مما يجعل هذه الفروق لا تسوغ التسرع في القول ببدعيته على سبيل الإطلاق والجزم.

العنصر الثاني: المئذنة.

إن التطرق للقضايا المرتبطة بالمئذنة هو حديث بالدرجة الأولى عن وظيفة الأذان التي لها أهمية بالغة في العمل الوظيفي للمسجد، إذ إن المئذنة وسيلة لتحقيق هذه الغاية، وتجتذبنا قضايا فرعية تتعلق بموضوع المئذنة تتجلى في الحديث عن تاريخ الآذان، تسميات المئذنة، أنواعها، دلالاتها وتخطيطها وموقعها.

فالتأصيل التاريخي لهذا المكون يشير إلى انعدامها في المسجد خلال زمن النبوة ومراحل حكم الخلفاء الراشدين[24]، فقد كان بلال رضي الله عنه يصعد على دعامة مربعة بدار عبد الله بن عمر يرفع الأذان من فوقها، وقيل: إنه يصعد على سطح منزل أسرة من بني النجار، لكونه أعلى منزل حول المسجد، فرجحان المصلحة والحاجة الملحة هما الدافعان الأساسيان وراء ظهور المئذنة كمكون بارز من مكونات المسجد لأداء هذه الوظيفة الشعائرية، يقول الأستاذ نجاي محمد حسن عبد القادر الأنصاري: 'إن الحاجة إلى رفع الأذان من مكان عال دفعت المسلمين في المدينة المنورة إلى الانتقال بموضع الأذان من مستوى سطح المسجد إلى سطح أعلى المنازل المجاورة، ثم إلى سطح المسجد النبوي الشريف فيما بعدُ، مع بناء شيء يزيد من ارتفاعه، ثم إلى اتخاذ المآذن على مختلف ارتفاعاتها'[25].

وقد كان صلى الله عليه وسلم قد أهمّه أمر الأذان، فعَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَشَارَ النَّاسَ لِمَا يُهِمُّهُمْ إِلَى الصَّلَاةِ، فَذَكَرُوا الْبُوقَ، فَكَرِهَهُ مِنْ أَجْلِ الْيَهُودِ،

ثُمَّ ذَكَرُوا النَّاقُوسَ، فَكَرِهَهُ مِنْ أَجْلِ النَّصَارَى، فَأُرِيَ النِّدَاءَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ، وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَطَرَقَ الْأَنْصَارِيُّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلًا، **فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِلَالًا بِهِ، فَأَذَّنَ**، قَالَ: الزُّهْرِيُّ، وَزَادَ بِلَالٌ فِي نِدَاءِ صَلَاةِ الْغَدَاةِ: الصَّلَاةُ خَيْرٌ مِنَ النَّوْمِ، فَأَقَرَّهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ رَأَيْتُ مِثْلَ الَّذِي رَأَى، وَلَكِنَّهُ سَبَقَنِي[26].

ويستفاد من هذا الحديث النبوي الذي يوضح تاريخ تشريع الأذان ما يلي:

-التفكير والتخطيط فيما يهم من الأمور التي تخدم رسالة المسجد وتحسن من جودة وظيفته، فالمؤسسة المسجدية كانت تعرف تغيرات كلما ظهرت الحاجة الوظيفية إلى إحداث تغير من شأنه أن يسهم في تلبية ما تدعو الحاجة إليه من خلال عملها.

-الحكمة التشريعية من خلال الرؤية التي كانت سببا في اتخاذ الأذان للمناداة إلى الصلاة.

-تميز وفرادة الأمة الإسلامية في شعائرها التعبدية، وحرص الشارع على نهجها منهجا تخالف فيه أنماط عبادات وعادات الملل الأخرى.

-حسن الصوت وجماليته معيار أساسي في انتقاء المؤذن، لأن ذلك أدعى للتأثير في مسامع الناس وخشوعهم لكلمات الأذان.

أما عن تسمياتها؛ فاشتهرت المئذنة أن يطلق عليها **الصومعة** وذلك نظرا لعلوها في الأفق، وهذه التسمية قوية وأصيلة لأن القرآن الكريم قد استعملها في قوله تعالى: "**الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**" (سورة الحج، الآية 39)، ولا شك أن **العلو والبروز** اللذين يميزان الصومعة يعطيانها من الدلالة **الرمزية** الشيء الكثير، فما إن يدخل الداخل إلى مكان يعج بهذه الصوامع إلا ويكون ذلك المظهر رمزا على تعدد المساجد ووفرتها بذلك المكان.

واشتهرت المئذنة كذلك بتسمية **المنارة** وذلك لكونها تضيء للسفن القادمة ليلا فترشدها بذلك إلى الوصول إلى بر الأمان بالموانئ، ومنه فإن المئذنة كانت **ثنائية** الوظيفة، حيث اتخذت في كثير من الأحيان الشكل المعماري للمنارة كما هو الشأن بالنسبة لمنارة ومئذنة الإسكندرية[27]، فهي تؤدي وظيفة **دينية** بإرشاد المسلمين إلى تأدية فروضهم، وتؤدي كذلك وظيفة **عسكرية** (مثل البرج)[28]، ولا بد هنا من الإشارة إلى عنصر تفاعلي في المزج بين وظيفة الأذان ووظيفة الإنارة وهو أن مؤسسة المسجد مشاركة وحاضرة بقوة في الحياة العامة للناس بل عنصر مساند لهم حتى في لحظات تنقلهم وكسب معاشهم، حيث هذا من شأنه أن يسهم في توطيد وتقوية علاقة الأفراد بهذه المؤسسة عبر هذه الصلات، وإن كانت قد تبدو للبعض هيّنة وضعيفة من حيث التأثير، ولا تزال وظيفة الإنارة حاضرة بقوة في كثير من الصوامع المسجدية في مناطق متنوعة، إما إعلاما بدخول الوقت، أو إشارة إلى مناسبة من المناسبات التي قد يعسر على البعيد معرفة وقتها.

وبالتالي؛ فلكل واحد من هذه المسميات الثلاث بُعده الخاصّ الذي يتميز ويتفرد به عن المسمّى الآخر، فالمئذنة تتميز ببعدها **الروحي**، والصومعة تتميز ببعدها **الرمزي والفني**، والمنارة لها بعد **إعلامي إرشادي**، ولعل تداخل وتكامل هذه الأبعاد الثلاثة في نفس المكون المسجدي ليعطينا إشارة واضحة إلى الانفتاح الذي كان يحظى به المسجد على الحياة العامة، وهو الانفتاح الذي ينبغي أن يكون عليه دوما نظرا للحاجة الملحة إليه.

والمآذن أنواع متعددة تختلف أشكالها تبعا للبيئة التي توجد فيها، فنجد في العراق انتشار **المآذن الأسطوانية (المستديرة)**، وقريب من هذا الشكل أو مندرج تحته **المئذنة الملوية** بالمسجد الكبير بسامراء[29]، ونجد في جوامع شمال إفريقيا والأندلس **المئذنة المربعة**[30]، وهناك مآذن أخرى تجمع بين الفنون البيزنطية والعربية والإيرانية وهي **مآذن هرمية مقطوعة أو مستديرة** وظيفتها إلى جانب الأذان حراسة الثغور وتربية الحمام

الزاحل[31]، ولا شك أن هذا التنوع الشكلي في بناء المآذن يوازي تنوعها وتباينها من حيث مواد البناء، وذلك تبعا للمناطق التي أنشئت فيها هذه المآذن، فنجد استعمال الحجر في الأندلس والشام وبعض المناطق في العراق، كما نجد الآجر والقرميد في المغرب وفارس وأفغانستان، وكلا النوعين نجدهما في الهند[32].

وعند ملاحظة الشكل الخارجي للمئذنة؛ ندرك أن لها ثلاثة عناصر أساسية بمثابة الأركان التي لا يمكن الحديث عن وجود المئذنة بدونها:

-**القاعدة وهي المسقط الأرضي**[33]، وهو عنصر مهم يعطي القوة البنائية للمئذنة وتتصدى بها لعوادي الزمن وتأثيراته في البناء، وكم من تصدعات وتشققات حدثت في أبنية المآذن بسبب الإهمال في تشكيل هذا العنصر فآل الأمر إلى مخاطر باتت تهدد سلامة المصلين والمرافق المجاورة للمسجد، وهو الأمر الذي يستدعي عدم التهاون في تواجده قبل غيره من المكونات.

-**الدرج**: يرقى عليه الراقون إلى أعلى المئذنة[34].

-**الحيطان** المكونة لطول ارتفاعها.

-**الجامور** العلوي والذي يتم فيه تثبيت مكبرات الصوت، وذلك بشكل موزع يتيح انتشار الصوت المنبث بالأذان من العلو نحو الجهات المحيطة بالمسجد، كما نجد في هذا المكون المصابيح المضيئة والتي تشغل عند الحاجة إلى تشغيلها، وهذه المصابيح كانت قديما تعوض بالقناديل، وغالبا ما يتم تشغيل هذه المصابيح في المناسبات الدينية البارزة، كما في ليلة السابع والعشرين من رمضان، أو عند دخول أول ليلة منه، أو في ليلة العيد.

أما عن موقع المئذنة؛ فهو يختلف من مسجد إلى آخر، ويرجع ذلك في نظري إلى عاملين إما عامل **التصميم الهندسي** الذي يراعي فيه المختص أمورا تقنية محضة، وإمّا عامل **العادة والعرف** تبعا لما جرى عليه أهل البلد في نظام إقامة المئذنة داخل موقع المسجد في كليّته.

وبالتالي؛ فقد نجدها في مؤخرة المسجد أو مقدمته، وقد تكون في ركن من أركانه، وقد تنتصب مستقلة عن صحن المسجد وبيت الصلاة، وقد تكون ملتصقة بالجدار الخارجي، فبالنسبة للمساجد الفاطمية تقع مآذنها في الأركان بخلاف المساجد العباسية التي تقع فيها على نفس المحور مع المحراب كما في سامراء وأبي دلف[35].

ولم أعثر في حدود ما بحثت عن سر هذا الاختلاف القائم في موقع المئذنة، لكنني وجدت من ينظر إلى انفصال المئذنة عن المسجد نظرة نقص وتباعد، يقول الأستاذ كريدية إبراهيم منتقدا هذا الوضع للمئذنة بالمسجد الأعظم بآسفي: 'فبدت الصومعة في وضعها الغريب، وكأنها مخاصمة لمسجدها، كما يحلو لأحجية قديمة متواترة بآسفي أن تردده، وحتى اليوم ما يزال المسجد وصومعته متباعدين، يفصل بينهما طريق ودور وباب يعرف بالبويبة'[36].

ولعل هذا النقد يرجع إلى اعتبار خاص قد يظهر منطقيا، وهو أن المئذنة قد تبدو وكأنها شيء مستقل لا علاقة لها بالمسجد، وبالتالي يسهل التحكم أو التصرف فيها بغض النظر عن الحرمة المسجدية، ولذلك فإن مجموعة من الصوامع المسجدية لم تسلم من هدم المستعمر نظرا لكونها منفصلة عن المسجد، في حين لم تمتد أيديهم بالبطش إلى الصوامع التي هي ركن داخل المسجد، رغم أن المئذنة لا يتعلق أو يرتبط بها حكم شرعي من أحكام الأذان، بل حتى ممارسة هذه الشعيرة التعبدية تتم دون صعود إلى المئذنة وبمعزل عنها نظرا لتطور الوسائل الصوتية التقنية التي تتيح وصول الصوت إليها، ولكن الدلالة الرمزية لهذا المكون المسجدي تظل شاهدة وحاضرة بقوتها ووزنها، ولولا مكانتها القوية ورمزيتها المؤثرة في الدلالة على الإسلام لما كان لها استهداف مقصود من قِبل المستعمر رغم انفصالها عن الفضاء المسجدي المخصص للصلاة.

العنصر الثالث: المنبر.

يدل مفهوم المنبر والمشتق من النبر على الارتفاع والعلو ويتعلق هذا الارتفاع والعلو بالتموضع المكاني المادّي وبالصوت المنبعث منه[37]، ولذلك عرفت بعض المساجد تواجد

مكون يدعى دكة المقرئ[38] يصعد إليها بدرج خشبي بسيط، ويتواجد من خلاله المقرئ في مكان مرتفع فينتشر صوته بشكل جيد ومؤثر حيث إن المساجد لم تكن قد عرفت حينها توفر مكبرات الصوت التي تكفي في التحكم في الصوت وجودته.

يعتبر المنبر مكونا مادّيا بارزا من مكونات المسجد التي تسهم في أداء وظيفة الخطيب والواعظ بشكل قوي وناجح، نظرا لما يميزه من مميزات تواصلية وإعلامية هامة، يقول الحافظ ابن حجر العسقلاني في هذا الصدد: 'وَفِيهِ اسْتِحْبَابُ اتِّخَاذِ الْمِنْبَرِ لِكَوْنِهِ أَبْلَغَ فِي **مُشَاهَدَةِ** الْخَطِيبِ وَ**السَّمَاعِ** مِنْهُ'[39]، بالإضافة إلى **الإحساس** بالانفعالات النفسية التي تجول بخاطره فتكون كلماته أكثر تأثيرا على الحاضرين[40]، وعليه فمن الخطأ الجسيم عند صنع وتركيب المنبر أن يجعل فيه من الأخشاب والأعمدة على هيئة ما تحول دون المشاهدة المباشرة للخطيب، لأن ذلك يتعارض مع المقصد الذي من أجله تم اتخاذ المنبر أصلا، كما أنه من أعظم المقاصد في استعمال المنبر واتخاذه للخطبة هو أن يُعرف الخطيب لدى الغريب الذي يلج لأول مرة ذلك المسجد، فيكون ذلك أدعى للانتباه إليه والخشوع مع كلامه، لأن وجود الخطيب داخل المسجد بشكل غير مميز يشتت ذهن الحاضر فلا يدري حينها من المتكلم ويبقى شارد الذهن أثناء الخطبة، فيضيع تأثيرها عليه، ويظهر ذلك جليا إذا ما وُجد المصلي خلف عمود من أعمدة المسجد الكبيرة التي تحجب الرؤية نهائيا فيصير بذلك وكأنه يصلي خارج المسجد لا يرى شيئا.

ويمكن القول إنه مؤسسة صغرى قائمة بذاتها داخل المؤسسة المسجدية الكبرى، وذلك نظرا لحجم الرسائل التي تصدر من على فوقه، وقوة التأثير الذي تحظى به في نفوس الجمهور، يقول عبد الله قاسم الوشيلي: 'ومما لا شك فيه أن المنبر في المسجد **أخطر مؤسسة إعلامية** اعتمدها الإسلام للمسلمين ليرسلوا من خلاله التوجيهات والإرشادات والنصائح لمختلف شؤونهم وأحوالهم الدينية والدنيوية ولجميع الناس والذي زاد في خطورته ارتباط مشروعية الارتقاء عليه للخطبة للصلوات المشروعة لها الخطابة

المتضمنة التوجيه لكل ما يحتاجه المجتمع وتحتاجه الأمة'[41]، والتعبير بلفظ الخطورة عن المنبر تعبير بليغ حيث إما أن يتم توظيفه إيجابيا في التوجيه والتبليغ على الوجه المراد فيثمر بذلك تأثرا وتطبيقا لفحوى ما يبثه في الناس، وإما أن يُوظَّف سلبا في هذا العمل فيورث اشمئزازا ونفورا وتدمرا من صاحب المنبر، والكلام هنا عن المنبر في هذا الشق هو ذو صبغة تداخلية مع الكلام عن الخطيب باعتباره عضوا معنويا أساسيا من أعضاء المسجد.

يطلعنا تاريخ تكوين المنبر على حقيقة مفادها أنه عرف تطورا في شكل ظهوره منذ العهد النبوي، فقد كانت أوائل خطبه صلى الله عليه وسلم تتمّ على جذع شجرة ثمّ تطور الأمر إلى موافقته على اتخاذ منبر يرقى عليه لخطبه، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بَدَّنَ قَالَ لَهُ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ: **أَلَا أَتَّخِذُ لَكَ مِنْبَرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَجْمَعُ –أَوْ يَحْمِلُ–عِظَامَكَ؟ قَالَ**: «**بَلَى**»، **فَاتَّخَذَ لَهُ مِنْبَرًا مِرْقَاتَيْنِ**[42]، ويروي لنا الإمام البخاري حديثا في النشأة التاريخية للمنبر بسنده إلى أبي حازم بن دينار، أن رجالا أتوا سهل بن سعد الساعدي، وقد امتروا في المنبر مم عوده، فسألوه عن ذلك، فقال: والله إني لأعرف مما هو، ولقد رأيته أول يوم وضع، وأول يوم جلس عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فلانة – امرأة من الأنصار قد سماها سهل — ((**مري غلامك النجار، أن يعمل لي أعوادا، أجلس عليهن إذا كلمت الناس**، فأمرته فعملها من طرفاء الغابة، ثم جاء بها، فأرسلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمر بها فوضعت ها هنا، ثم رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى عليها وكبر وهو عليها، ثم ركع وهو عليها، ثم نزل القهقرى، فسجد في أصل المنبر ثم عاد، فلما فرغ أقبل على الناس، فقال: أيها الناس، **إنما صنعت هذا لتأتموا ولتعلموا صلاتي**))[43]، وبعد توسعة المسجد النبوي جُعل المنبر من درجتين ومقعد عرضه مترا وارتفاعه مترا وبقي على حالته إلى عام 29هـ حيث كساه عثمان بن عفان القبطية وهي ثياب رقاق مصرية[44].

يصور لنا الأستاذ محمد حمزة إسماعيل الحداد مجموعة من الأوصاف التي تخص هذا المنبر والتي يمكن تركيزها في خمسة عناصر على الشكل الآتي:

[-تواجده على يمين المحراب.

-مختصر ليس فيه نقوش زماننا.

-له درج وسمّر في أعلاه لوح حتى لا يجلس أحد على الدرجة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس عليها.

-تواجد الجذع أمام المنبر.

-احتواؤه على تابوت يستر به مقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم][45].

ويدل هذا التصوير على أن هذا العمارة التي عرفها المسجد النبوي ظلت محافظة على أهم العناصر والخصائص الأساسية للمنبر، من ذلك الحفاظ على العلو ومكان التواجد والجذع الذي كان سبب نشأته ووجوده مع الحرص على تميز صاحب هذا المنبر عمّن ينوب عنه من بعده في هذا المكان، ويمكن تصنيف هذه العناصر ضمن **البعد التفاعلي التاريخي المرتبط بالمكان والشخص**.

إن السنة في اتخاذ المنبر أن يكون من ثلاث درجات، يرقى عليها الخطيب يوم الجمعة لإلقاء خطبته، حيث إن طول مساحة المنبر وكثرة عدد درجاته يجعله يقطع الصف ويعطي علوا زائدا عن الحد المعقول لمكان تواجد الخطيب، بالإضافة إلى إرهاقه في الصعود إليه إن كان من ذوي السنّ المتقدم، وقد سبق لي أن لاحظت مرارا عناء خطيب من خطباء الجمعة في المدينة التي أقطن بها، ذلك أنه لما كبر في سنه وصار لا يطيق صعود كل الأدراج التي يحتويها المنبر، أصبح يكتفي بالدرجين الأولين ويجلس عندهما ليلقي خطبته ثم ينزل للصلاة.

يقول الباحث (محمد بن أحمد الحجري) في شأن بعض مساجد صنعاء: 'ومن محاسن الوزير مراد باشا إصلاح منبر الجامع في سنة 984هـ كما هو مذكور كما هو مذكور في

نفس المنبر فوق الفصل وهو باق على أصله، إلا أن وضعه كان حائلا دون إكمال الصف الأول حتى أصلح وضعه مولانا الإمام المتوكل على الله يحيى ابن الإمام المنصور بالله محمد بن يحيى حميد الدين وذلك في سنة 1338هـ'[46].

ومن الناحية الفقهية يذكر الإمام الزركشي (794هـ) ما يدل على أولوية اجتناب اتخاذ منبر كبير خاصّة إذا كان المسجد سيضيق بسببه، فقال: 'يكره اتخاذ المنبر الكبير الذي يضيق على المصلين إذا لم يكن المسجد متسع الخطة، قاله الرافعي وقال القاضي الحسين: إن كان لا يضيق لسعة المسجد لم يكره، وإن كان يضيق المكان عليهم لا يجوز، هكذا نقله عنه العجلي، وظاهره التحريم'[47].

يتبين من خلال ما سبق أن اتخاذ المنبر في الإسلام أمر اقتضته الوظيفة التواصلية والتفاعلية للخطيب، وذلك من أجل تحقيق الجودة والفعالية في مهمته، فهو إذا من وسائل تجويد الرسالة المسجدية، خاصة إذا احتُرِمت فيه الضوابط والمعايير التي لا تعود على مقصديته بالنقض، وبذلك ندرك البون الشاسع بين المنبر الإسلامي والمنبر في الديانات الأخرى، فالمنبر الإسلامي ليس له ارتباط بأي بعد عقدي أو ثابت من ثوابت الدين، فهو لا يتجاوز حدود البعد الدعوي التواصلي، لكننا نجد في المقابل أن المنبر خارج المنظومة الإسلامية يختلف من حيث **الشكل** ومن حيث **البُعد**، فمن حيث الشكل تتميز المنابر الإسلامية بكثرة عدد الدرجات أو الشكل الفريد المتميز، [فالمنبر القبطي يصل إلى سبع درجات وفي جانبيه عمودين صغيرين، وفي ديانة أخرى يُصنع المنبر على شكل كرسي العرش الذي يجلس عليه الملك][48]، وإذا نظرنا إلى جوهر الاختلاف من زاوية البعد العقدي فمنبر الأقباط يعبر تعدد درجاته الكثيرة على الدرجات الكهنوتية، أما الذي يصنع على هيئة كرسي العرش فإنه يعبر عن تقديس خاص وقوة سحرية، حيث يعتليه الأقوى والمنتصر في مبارزة ما، لتتطور الفكرة إلى احتفال خاص له صلة باعتقاد تجديد الشباب وتطويل فترة الحكم.

لذلك؛ ينبغي أن يجتنب في اتخاذ المنبر تكبير مساحته وتكثير درجاته لتفادي التشبه بالملل الأخرى في هذا البعد العقدي الذي يخصهم ولتفادي المشوشات التواصلية التي سبقت الإشارة إليها آنفا، بالإضافة إلى الخلل الذي ينتج في الصفوف إثر هذه المنابر الكبيرة، فتصبح الصفوف في مظهر مختل يتعارض مع التسوية والتنظيم الذين يأمر بهما الإمام قبل الشروع في الصلاة.

وليست المنابر المسجدية على طراز واحد من حيث مادة الصنع ومن حيث التطور ومواكبة التحديثات التقنية المعاصرة، فمن حيث مادة الصنع نجد هنالك:

-**المنبر الخشبي التقليدي**[49]: مصنوع من الخشب الذي هو أصل تركيب المنبر البدئي الذي استفتح عليه الرسول صلى الله عليه وسلم خطبه، وميزة المنبر الخشبي سهولة التنقل به وتحريكه خاصة عند توفره على عجلات في قاعدته، كما أنه يمتاز بتوفره في الجانب على حاجزين خشبيين، الشيء الذي يفتقد في النوع الآخر من المنبر المثبت، بالإضافة إلى يسر تثبيت مكبر الصوت على جنباته من أجل التقاط كلمات الخطيب وتكبير صوته، إلا أن مهارة النجار عامل أساسي في دقة ومتانة صنع هذا المنبر.

-**المنبر الإسمنتي المثبت**: فهو منبر مشيد على شكل بناء اسمنتي، ميزته أنه يوفر على القيمين بالمسجد مرحلة إعداده في كل جمعة، لأنه لا يبرح مكانه، لكنه يفتقد للحواجز الجانبية، مما قد يعرض من فوقه للخطر عند فقدان توازنه، خاصة إذا اعتلاه صبي من الصبيان، وقريب من هذا النوع من المنابر المنصة المثبتة بجوار المحارب في القبلة والتي يرتقيها الخطيب لإلقاء خطبته، وهذه المنصة متواجدة بمساجد مصر، ونادرة جدا في تواجده بمساجد المغرب، إلا إذا استثنينا مصليات العيد فإن عددا منها يحتوي هذا النوع من المنابر.

أما من حيث المواكبة لتطورات العصر؛ فقد استفادت مجموعة من المنابر المعاصرة من التحديثات التي من شأنها أن تنهض بحركية المنبر داخل المسجد بشكل سلس ومريح من

حيث الوقت وعدم إعاقة أمكنة جلوس المصلين، فمن مظاهر ذلك تخصيص سكة خاصة لمرور عجلات المنبر حتى لا تؤثر في الأفرشة أو تأخذ وقتا زائدا في الرجوع بالمنبر إلى مكانه داخل المقصورة، ومن المظاهر كذلك لفي هذا الصدد تكييف المنبر بشكل فعال مع وضعية الخطيب من حيث تنقله واحتياجه إلى حيز يضع عليه ورقته وتموضع المكبر بشكل يلتقط كلماته ولا يعيق حركاته وتفاعلاته فوق المنبر.

العنصر الرابع: المقصورة.

هي الغرفة التي تلي المحراب من جهة القبلة، وأصلها هي الدار الواسعة المحصنة لا يدخلها إلا صاحبها[50]، فهي بناء محصن خاص بموظفي المؤسسة المسجدية، وبالتالي فلا ينبغي أن يدخل مقصورة المسجد إلا أهل الشأن الديني من القيمين على المسجد، فهي غير متاحة للجميع بل مقصورة اسما ومسمى على أصحابها، ويمكن أن أصطلح عليها اسم: **الرسالة الخفية للمسجد أو الركن الخفي لرسالة المسجد**، حيث تعمل في خفاء ضمن أغلب الوظائف التي يضطلع بها المسجد التفاعلي، واتخاذ المقصورة في المسجد أمر لم يعهد في الصدر الأول، إلا أنه يظهر أن كلام بعض السلف عن المقاصير وحكم اتخاذها يختلف عن المقاصير الحالية التي تتخذ في جل المساجد إن لم نقل كلها، ودليل هذا الاختلاف هو **التعليل الذي عللوا به** الحكم المقرر في شأن عدم جوازها، حيث نقل الزركشي عن أبي العباس القرطبي منع اتخاذها لما فيها من **تفريق الصفوف وحيلولتها دون التمكن من المشاهدة وقطع الصف الأول**[51]، أي أن هذه المقصورة توجد وسط فضاء المسجد المخصص للصلاة والمحراب متقدم عليها، ويؤكد ذلك ما ورد في الكوكب الوهاج: 'الصف الأول اختلف فيه هل هو الذي يلي الإمام أو هو المبكر؟ والصحيح أنه الذي يلي الإمام، لا الذي يلي الكعبة فيما إذا صلوا حول الكعبة أقرب إليها في غير جهة الإمام، فإن كان بين الإمام وبين الناس حجب حائلة كما استحدث من مقاصير الجوامع فالصف الأول هو الذي يلي المقصورة'[52]، وبالتالي لا ينبغي إسقاط

هذا الحكم على المقصورة الحالية لأنها تختلف كليا عنها في الحقيقة والوظيفة والدافع من وراء الاتخاذ، بل ورد من النقول التاريخية حول ما يتعلق بالمقصورات ما يزيد اليقين في هذه الحقيقة، من ذلك ما ذكره (أبو عبد الله محمد ابن عذاري المراكشي) (695هـ): 'وفي سنة 250، كملت مقصورة المسجد الجامع[53] بقرطبة؛ وبنى فيها الأمير محمد بنيانا كثيرا في القصر الكبير والمنى الخارجة عنه. ولم تكن في هذه السنة صائفة، استغنى بالغزوة المتقدمة، وأريح العسكر فيها'[54]، ووجه الدلالة في هذا النص أن المسجد سابق الوجود على المقصورة، فلو كانت هي عينها المقصورة الحالية لكان وجودها متزامنا مع وجود المسجد من أول وهلة، ولذلك فلا يمكن أن نتصور مسجدا حاليا وُجد قبل المقصورة، إلا ما ندُر من قبيل المعوقات المادية التي لا تتيح إنشاء جميع المكونات المسجدية دفعة واحدة.

وأول ظهور للمقصورة كان في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، حيث عملها من لبن وجعل لها كوى ينظر بها إلى الخارج، ثم تبعه عمر بن عبد العزيز الذي عملها بالساج، وذكر النووي في شرحه لصحيح مسلم أن معاوية هو أول من اتخذها حين ضربه الخارجي[55] هذا باعتبار تواجد المسلمين في الشام أما بالمدينة فأول من عملها هو مروان بن الحكم بن العاص بن أمية[56]، ولعل الدافع وراء اتخاذ المقصورة في هذه العهود الأولى هو الخوف من الإصابات[57] أو الهجومات التي كانت تطارد أئمة المسلمين وولاتهم نتيجة الصراعات السياسية التي تميزت بها تلك العهود بالإضافة إلى ظهور الفرق التي لم تتورع قطّ من ترويع المسلمين وتهديد أمنهم ولو داخل مساجدهم، إذن فهذه المقصورة تختلف -من حيث التموضع المكاني والتكوين **المادي** وتختلف أيضا من حيث **الدافع**-مع المقصورة التي يتم اتخاذها حاليا في المساجد المعاصرة والتي باتت جزءا هاما من الأجزاء المادية للمؤسسة المسجدية ولا يمكن الاستغناء عنها بتاتا في تنفيذ مختلف وظائفه، فالحكم الصادر حول المقصورة قديما لا علاقة له بالمقصورة الحالية نظرا للفوارق التي مضت، بل يمكن أن نقول إن الواقع التاريخي للمقصورة القديمة تطور إلى مظهر أسوأ في

بعض العهود، وذلك حينما صارت هذه المقصورة معزلا ينعزل فيه ذوو الجاه والسلطان دون موجب لذلك، ومن شواهد هذا المظهر ما ذكره أبو عبد الله المازني التميمي الحموي (697هـ): 'ولما ولى المستنصر بالله الخلافة سلك في العدل والإحسان إلى الرعية واتباع السنة مسلك أبيه الظاهر بأمر الله. وأمر فنودى ببغداد بإفاضة العدل وإن من كانت له حاجة أو مظلمه يطالع بها لتقضى حاجته، وتكشف مظلمته. فلما كانت أول جمعة أتت على خلافته أراد أن يصلي الجمعة في **المقصورة**التي جرت عادة الخلفاء بالصلاة فيها، فقيل له إن المطبق الذي يسلك منه إليها فيه خراب لا يمكن سلوكه، فركب فرسا وسار إلى جامع القصر ظاهرا بحيث يراه الناس بقميص أبيض وعمامة بيضاء بسكاكين حرير'[58].

وإذا أردنا أن نجلي الأهمية التفاعلية للمقصورة فإنه لا يسعنا إلا أن نتتبع بشكل دقيق أهم الأحداث والوقائع التي تعرفها المقصورة وتسهم في جريانها على امتداد أيام الأسبوع والشهر والسنة، والتي لا يمكن أن يلاحظها إلا متأمل متمعن في الموضوع بدقة، لأنها الوجه الخفي لرسالة المؤسسة المسجدية كما أسلفت القول في هذا الصدد، ومن خلال ملاحظتي للمقصورة في المساجد المتواجدة بمحيطنا القريب مع ما يتواجد بها من مكونات مادية على اختلافات يسيرة من مسجد لآخر، يمكن أن أسجل مجموعة من المهام التفاعلية التي تؤديها ضمن الرسالة العامة لمؤسسة المسجد والتي أضعها في العناصر الآتية[59]:

1-موضع حفظ رداء الخطيب وجلباب الصلاة الخاص بالإمام، وبعض الأمتعة التي يستحسن تركها قريبة في متناول القيمين الدينيين هنالك.

2-مكان لرسّ المنبر حتى لا تضيق به الصفوف على المصلين بصحن المسجد المخصص للصلاة، فقلما نجد مسجدا به مقصورة والمنبر خارجها، وإلا عُدّ ذلك سوء تدبير وتنظيم، وتواجد المنبر بهذا المكان يسهل عملية تنظيفه وتعهده بما ينبغي للحفاظ على صيانته اللازمة.

3-مكان استعداد الإمام لدخوله إلى الصلاة وجلوسه واستراحته بعد تراويح رمضان لتخفيف ضغط الصلاة وجهد القراءة في المحراب.

4-مكان تهيؤ الخطيب نفسيا ومعرفيا من أجل الولوج إلى خطبة الجمعة ببال مطمئن متفرغ لهذا الجو الروحي، لأن دخول الإمام من أبواب المسجد الأخرى لا يليق وهيبته. المعهودة.

5-موضع التقاء القيمين الدينيين وتواصلهم مع بعضهم البعض في جلساتهم الخاصة داخل المقصورة حول شؤون المسجد ونشاطه العام، من ذلك التنسيق بين أئمة التراويح حول مقدار القراءة في الركعات والموضع الذي سيقرؤون منه والذي سيتوقفون عنده ....

6-مكان وضع الجنائز للصلاة عليها، خروجا من القول الفقهي القائل بعدم جواز إدخال الجثة إلى المسجد لعلة نجاستها.

7-موضع تثبيت المكبرات وآليات ضبط الصوتيات حتى لا تبقى معرضة للعبث من طرف الناس داخل المسجد، وحتى تبقى في مكان يسهل من خلالها مراقبتها والتحكم في نوعية ضبطها.

8-موضع حفظ الحاجيات والودائع التي ضاعت لأصحابها، حيث يمنع شرعا إنشاد الضالة في المسجد، فناسب بذلك أن تستثمر المقصورة في هذه المهمة.

9-مكان مناسب للتنسيق والتهيؤ القبلي من قبل المكلفين بتخطيط وتنفيذ برنامج ندوة أو نشاط معين داخل فضاء المسجد.

10-مكان يستغل -في بعض المساجد التي تفتقر لمرافق مادية أخرى-في تحفيظ الصغار وتلقينهم القرآن ومبادئ العلم الأولى، أي تؤدي وظيفة **المسيد**.

11-موضع مستور صالح لتناول الطعام إذا دعت الحاجة إلى تناوله بالمسجد، وذلك حماية للأفرشة المعدة للصلاة من التلويث والروائح التي لا تليق والجو الروحي لأداء العبادة.

إذن فكل نجاح أو توفيق في مهمة من المهمات المشار إليها سابقا عن طريق استغلال المقصورة، إلا وللمقصورة فيه يد وإسهام وازن في إنجاحه، لذلك ينبغي الاعتناء بهذه المقاصير بتوفير الظروف الملائمة لبقائها على الهيئة المرضية.

ولقد أصبحت المقاصير الحالية في غاية ودقة التخطيط المحكم، حيث إنه يوجد بها دورة مياه للوضوء خاصة بالقيمين الدينيين دون إيقاعهم في حرج الخروج والتنقل إلى مكان آخر من أجل الوضوء، ومتكأ خاص للجلوس، إذا احتاج الإمام أن يجلس مع أحد يبسط معه موضوعا يحتاج في نقاشه إلى جلوس لوقت قد يطول، بل تطورت المقاصير في ظل الأفكار الموظفة للتقدم التكنولوجي في مجال الاتصال والتواصل إلى استعمال شاشة تلفزية مزودة بكاميرات من داخل قاعة الصلاة حيث تتجلى وظيفتها في أنها تبرز للإمام في المقصورة مدى امتلاء المسجد بإعداد المصلين، ليرى هل يخرج للصلاة أم ينتظر قدوم المزيد منهم.

المقصورة المعاصرة مكون مسجدي مادي تدعو الحاجة الملحة إلى تواجده ضمن التصميم الهندسي للمؤسسة المسجدية، انطلاقا من **المصالح الشرعية التي تسعى إلى تحقيقها**، ولذلك لم نجد من الفقهاء والعلماء المعاصرين من ينقل الفتاوى القديمة التي تنص على المنع والتحريم في حق هذا المكون، وذلك نظرا للبون الشاسع بينهما والذي سبق بيانه في هذا الصدد، وتجدر الإشارة إلى أنه لما كان هذا المكون وليد الحاجة الراهنة في مؤسسة المسجد فإنه ينبغي أن يتسم بالتكيف حسب المناطق والأعراف السائدة، ليحقق الخدمة الفعلية لأهل المنطقة وفق ما هم متعارفون عليه.

العنصر الخامس: الزخارف المسجدية.

سبقت الإشارة في المطلب الأول من المبحث الأول ضمن السياق الموضوعي للمسجد في السنة النبوية أن هناك العديد من الأحاديث التي تنهى عن الزخرفة في المسجد، وهي الأحاديث التي أخذ منها الفقهاء موقف المنع في هذه القضية، يقول ابن الحاج الفاسي

المالكي (737هـ) في بيان موقف الإمام مالك حول الزخرفة داخل المسجد: 'وينبغي له أن يغير ما أحدثوه من الزخرفة في المحراب وغيره، فإن ذلك من البدع وهو من أشراط الساعة.

ومن الطرطوشي قال ابن القاسم: وسمعت مالكا يذكر مسجد المدينة وما عمل من التزويق في قبلته فقال: كره الناس ذلك حين فعله؛ لأنه يشغلهم بالنظر إليه. وسئل مالك عن المساجد هل يكره أن يكتب في قبلتها بالصبغ مثل آية الكرسي وقل هو الله أحد والمعوذتين ونحوها فقال: أكره أن يكتب في قبلة المسجد شيء من القرآن والتزويق وقال: إن ذلك يشغل المصلي. وكذلك ينبغي له أن يغير ما أحدثوه من إلصاق العمد في جدار القبلة وفي الأعمدة، أو ما يلصقونه أو يكتبونه في الجدران والأعمدة. وكذلك يغير ما يعلقونه من خرق كسوة الكعبة في المحراب وغيره، فإن ذلك كله من البدع؛ لأنه لم يكن من فعل من مضى'[60].

فالزخرفة المسجدية من البدع المحدثة في الدين التي نبه العلماء عنها لما اشتملت عليه من المحاذير الشرعية والتي جمعها الزركشي في عناصر[61] يمكن تلخيصها كما هو الآتي:

1-تشبه بالكفار.

2-إنذار بحلول الدمار.

3-إلهاء للمصلين عن الخشوع والتدبر في الصلاة.

4-تبذير الأموال فيما لا طائل ولا نفع من ورائه، والمساكين أحوج لذلك.

5-من أشراط الساعة (كما سبق في ذكر أحديث الزخرفة).

تميزت مساجد العهود الإسلامية الأولى منذ تشييد الرسول صلى الله عليه وسلم لأول مسجد بالبساطة وعدم التعقيد والابتعاد عن التلوين والزخرفة داخل فضاء الصلاة انسجاما مع التعاليم الشرعية ومقاصد الشرعية المتسمة باليسر والسهولة في مظاهرها العامة، يقول الأستاذ حسين مؤنس: 'وطبيعة المساجد نفسها تتنافى مع الضخامة والإسراف في الزينة، لأننا نعرف أن المسجد ينبغي أن تتناسب هيئته مع بساطة الإسلام

وصفائه، فالإسلام **سهل يسر واضح**، وعبادته كلها بسيطة واضحة لا غموض فيها ... ومن هنا كره الصالحون المساجد الضخمة المثقلة بالزينة، لأن المظهر الفخم لا يخلو من **غرور وتكلف**، ولأن الزينة تشغل المصلي عن الانصراف بقلبه نحو الخالق. وهذه **البساطة هي أجمل ما في معظم المساجد**، وإنه لمن مفاخر المعماريين المسلمين أنهم تمكنوا من إنشاء مساجد هي الغاية في الفخامة والروعة مع المحافظة على روح الإسلام التي تتجلى في البساطة الوقور'[62].

يتبين من خلال هذا النص أن الأصل في مكان الصلاة داخل المسجد هو البساطة، التي تعتبر في حد ذاته جمالا نابعا من روح الإسلام، باعتباره دينا يدعو إلى عدم التكلف في مظاهر الحياة، وبالتالي فإحداث الزخارف والنقوش في محيط المصلي يشتمل على نوع من التكلف والإحداث، حيث يتنافى ذلك مع المقصد العقدي للشارع في إنشاء المسجد، يقول شاكر هادي غضيب: 'وهذه المساجد البسيطة ترمز ببساطتها إلى جانب هام من جوانب العقيدة الإسلامية، فإن عقيدة الإسلام سهلة واضحة لا تعقيد ولا تكلف فيها'[63].

وبالرغم من أن الجامع يعتبر مركز إشعاع الحياة الإسلامية فقد كانت العناصر التي يتكون منها في غاية البساطة، وليس هذا فقط نظرا لعدم توفر الإمكانات المادية لذلك أو عدم تطور الفن الزخرفي في ذلك العصر، وإنما إذا تشتت الجهد وضاع في الانشغال بهذا الأمر، ستضعف الهمم والطاقات في النهوض بالوظائف الأخرى التي تنتظر من المؤسسة المسجدية أن تلبيها للناس، ولو كان الاشتغال بهذه الأمور فيه من المنفعة الراجحة لورد في الشرع ما يرشد إليه.

وليس إحداث الزخارف في المصلى المسجدي تكلفا في التشييد فقط، بل هو مظهر من مظاهر البذخ والإسراف وإنفاق الأموال في غير وجهها المشروع، حيث إن هناك

أولويات متعلقة بالمؤسسة المسجدية ماديا ووظيفيا هي أجدر بهذا الإنفاق من هذه الزخارف التي ليس لها إلا التزيين الذي يشغل البال بلا فائدة.

يعتبر الحديث عن الزخارف المسجدية حديث بدرجة أولى عن القباب باعتبارها مظهرا من مظاهر الفن الزخرفي، يقول عبد الكريم عزوق: 'تبين القبة مهارة المعماري المسلم من حيث الخبرة والعلم، إذ إن العناصر التي تشتمل عليها القبة كلها معمارية وزخرفية في آن واحد، كما يبدو أنه لأول مرة يظهر هذا الاستقلال بين عناصر القبة من الغطاء الكروي إلى المجوفات والحنايا التي أصبحت بمثابة دعامة للقبة'[64]، فهي ليست يسيرة البناء والتركيب، بل تتطلب نوعا من المهارة والحذق والتمكن في إتقانها، ولذلك فهي تستلزم وقتا طويلا في إنشائها، وتتنوع من حيث مكان تواجدها بالمسجد حسب العصر الذي يوجد فيه المسجد.

ومن مزايا القبة في المسجد: استخدامها لربط المباني ولمقاومة هزات الزلازل — توفير التهوية اللازمة للمصلين بسحب الهواء الساخن إلى الأعلى — السماح بمرور الضوء عبر التخاريم المتواجدة بجنباتها[65] –استمرار التيارات الهوائية على غرار المدفئة من أجل المساعدة على التنفس في جوّ صحي[66].

ولقد كان لنشأة القباب تأثير وامتداد إلى البنايات والمنشآت الغربية وغيرها، بل زادت أحجامها خاصة في عمارة المساجد التركية[67]، فمنها ما يغطي المحراب بكامله تقريبا للاستغناء عن الأعمدة في البناء، وذلك لأنها تعيق تسوية صفوف المصلين وتحول دون إكمال الصفوف.

ويمكن أن نقول إن المساجد الشيعية هي الأكثر شهرة في استعمال الزخارف وتوظيفها في البناء خاصة القباب، وذلك لارتباطها الكبير بظاهرة **العلو والفخامة** اللذين يميزان المساجد الشيعية، بالإضافة إلى صلة المساجد الشيعية بالأضرحة والقبور المتواجدة فيها، فكانت هذه القباب علامة ورمزا على هذه المكونات، [فالطراز الصفوي أو الإيراني توسع في استخدام القباب في المساجد والمراقد][68]، دون أن نغفل النظام التقسيمي الذي ميز

المساجد الشيعية والذي يصطلح عليه بالنظام الإيواني حيث يعرف هذا النظام تقسيم بيت الصلاة إلى حيزات متعددة[69].

ولعل فتاوى العلماء في كراهيتهم وتحذيرهم من ظاهرة الزخرفة في المسجد تذهب بنا إلى مسلك تقسيم المناقشة في هذه القضية انطلاقا من تعليلاتهم إلى أمرين: **زخرفة داخلية** وسط فضاء المسجد المخصص للصلاة و**زخرفة خارجية** منفصلة عن الفضاء المخصص للصلاة، رغم أنني لم أقف على هذا المبحث بين **الداخل والخارج** في قضية الزخرفة، لكنه تقسيم تفرضه طبيعة الخوض في الموضوع والعلل التي رافقت العلماء في ذكرهم للحكم المقرر ومراعاة للمصالح المقررة شرعا في عدم تحريم ما لا دليل عليه.

فالقسم الأول للزخرفة لا شك في دخوله ضمن النصوص المانعة نظرا لكونه ينطبق عليه ما أسلفناه في موضوع الزخرفة، أما الزخرفة الخارجية فالمتأمل فيها يرى أنه لا تأثير لها في وضعية الخشوع والتدبر داخل العبادة بالمسجد، ومع ذلك فإنه ينبغي أن تستحضر فيها جملة من الضوابط التي تسيجها بسياج شرعي، حيث إن التزيين الخارجي للمؤسسة المسجدية يجذب إليها الأنظار، فالعين مفتاح لانجذاب القلوب نحو المكان المزين، والقلوب تنفر من المكان الذي تشمئز منه العين، ومع ذلك لا بد من مراعاة أمور في زخرفة وتزيين المساجد من الخارج وأهمها:

1-التوسط والاعتدال في المبلغ المخصص لمصاريف هذا التزيين ومراعاة العرف في ذلك.

2-التركيز على الجمالية وحسن المظهر وانجذاب القلوب.

3-الانطلاق من البيئة المحلية والمواد الأولية المتوفرة في المحيط القريب ترشيدا للنفقات.

4-عدم الإضرار بالنشاط الوظيفي العام للمؤسسة المسجدية.

وقد اعتمدت في الوصول إلى بعض من هذه الضوابط ما يقوله الدكتور (عبد العالي المعكول): 'وإذا كان هيكل المسجد العام الذي وضعه الرسول صلى الله عليه وسلم ببناء المسجد النبوي قد حوفظ عليه في عهد الصحابة ومن جاء بعدهم، فإن عمارته تطورت

منذ خلافة عثمان رضي الله عنه، ولقد جاءت عمارة المسجد النبوي منبثقة من البيئة المحيطة به، سواء من حيث الشكل المربع أو من حيث المواد المستخدمة في بنائه، وفي عهد عثمان ونظرا لوفرة المال بعد الفتوح التي وقعت في عهد عمر، عمل عثمان على توسعة المسجد النبوي وتشييده'[70]، والأصل في هذه التغيرات التي عرفها المسجد من حيث البناء ما روي عن ابن عمر قال: [كان مسجد النبي صلى الله عليه وسلم مبنيا بلبن، وكان أسطوانه خشبا، وكان سقفه جريدا، فقبض النبي صلى الله عليه وسلم وولي أبو بكر فلم يحركه حتى مات، ثم ولي عمر فزاد فيه وجعل أسطوانه الخشب كما كان، وسقفه بالجريد، فلما كان عثمان زاد فيه فبناه بالحجارة المنقوشة وسقفه بالساج][71].

فقد كان هناك تكيف طبيعي مع المتاح من المواد البنائية والتجهيزية الملبية للمقصود ليتم توظيفها في بناء المساجد، كما امتد التطبيق العملي لهذا التكيف في بناء المساجد مع مكونات المحيط إلى أقطار إسلامية متعددة، كما ذُكر في تشييد بعض مساجد دهلي: 'وفي عهد الدولة التغلقية (720هـ/ 816هـ) تحول الفن المعماري نحو البساطة والاستغناء عن المنحنيات المسرفة في البذخ، وبدلا من بناء العمائر بالحجر الأحمر والرخام أصبح يستعمل الحجر غير المصقول ومع المونة، وتميزت مباني آل تغلق من مساجد وقلاع وأضرحة بسماكة جدرانها وارتفاعها واستخدام الحجارة المنحوتة غير المصقولة، أما زخارفها فهي من الحجارة المتعددة الألوان ويغلب عليها اللونان الأبيض والأسود، وهذا النظام الزخرفي يهرف بالنظام الأبلق'[72]، ولعل ما تقدم يطلعنا على حقيقة أخرى تتعلق بالزخارف وهي أنها ترجمت نوعية الفكر الإبداعي والمهاري للصانع المسلم في كيفية مزاوجته بين جمالية المظهر ورونقه وبين جودة وصلابة المنتوج ليتمكن من مقاومة عوامل الزمن وتأثيرات المناخ عبر الأيام، ولم تكن تلك النظرة الجمالية للصانع المسلم –في إظهار الشكل الخارجي للمؤسسة المسجدية ضمن قالب متناسق بهي الحلة–نظرة نابعة من فراغ أو مجرد عبثية أو اعتباطية في الصنع والتركيب، بل كانت نظرة تأملية نابعة من إمعان عميق نتاجا لمنظومة متكاملة تمتزج فيها تأثيرات تجليات العقيدة وانعكاسات العبادات

الدورية، يقول الأستاذ رؤوف الأنصاري: "لقد كانت هندسة المساجد الأولى ذات **مظهر تقشفي وبسيط يتلاءم مع الحياة البسيطة والمتواضعة**، التي كان يعيشها الإنسان المسلم في المرحلة الأولى من تحرره من العبودية والوثنية، ولكن المعماري المسلم أضاف بعد ذلك وبشكل تدريجي لهذا التقشف الهندسي **مضمونا روحيا وفكريا بالغ الجمال** سرعان ما أدى إلى نشأة الفن الزخرفي الإسلامي، حيث إن الزخرفة الإسلامية ما هي في الواقع سوى أداة للتأمل العميق للإنسان المسلم أثناء تأدية الصلاة، والتي **تبعده عن وطأة العالم المادي ومشكلاته المعقدة**"[73]، وبالتالي؛ يمكن أن نقول إن الزخرفة شكلت متنفسا وجدانيا للمعماري المسلم يلجأ إلى ممارستها للتعبير عن أحاسيس ومشاعر داخلية تعتبر نتاجا لتفاعل الذات مع عناصر العالم الروحي المستمدة من معاني العقيدة الإسلامية، والتي تخفف من تأثيرات الحياة المادية التي يغوص فيها بسبب عقبات الحياة العامة، فكان من الحكمة أن يتم تهذيب هذه الغريزة الوجدانية دون اتخاذ موقف سلبي نهائي منها فيتم بذلك كبتها بصفة كلية، ولعل موقف التعامل مع هذه القضية بمنطق التفريق بين الفعل الداخلي وبين الفعل الخارجي كفيل بمراعاة هذا البعد الوسطي الذي لا يلغي إعمال النصوص المانعة ويحسن تنزيلها على أرض الواقع –والله أعلم.

يلاحظ أن الواجهات الخارجية للمساجد الشيعية شكلت فضاء متاحا لقمة إبداع المعماري الشيعي بشتى أنواع الفن الزخرفي الذي وصل إليه مستوى تفننه وتزيينه لهذه الأماكن معبرا من خلال ذلك على عبقريته الوجدانية في تفاعلها مع معطيات العالم الروحي عندهم، وهو ما تذهب إليه غادة عبد المنعم الجميعي: "تميزت واجهات العمائر الدينية في إيران بشكل عام بتراثها الزخرفي وبخاصة في العصر الصفوي حيث اهتم المعماري الصفوي بضخامة وفخامة واجهات منشآته وراعى فيها النسب الصحيحة بين العناصر المكونة لها، وقد زاد المعماري من اهتمامه بالواجهات باستخدام أنواع التكسيات الخزفية بشكل واسع وجميل يدل على البراعة الفنية للفنان الإيراني سواء في استخدام

البلاطات الخزفية المربعة أو استخدام الفسيفساء الخزفية ... وكانت الواجهات الخارجية والداخلية للمساجد الصفوية تمثل مجالا خصبا لإبداع الفنان الإيراني لإبراز ما أنتجته عبقريته"[74].

وبالتالي؛ يمكن أن نخلص إلى تكوين تصور عام حول المسجد الشيعي مفاده أنه مسجد يركز من الناحية المعمارية والزخرفية على الفخامة والعلو وكبر المساحة، وجعل الواجهات في حلة جذابة عن طريق الألوان والنقوش والبلاطات.

وقد كان من نتاج الاهتمام بالفن الزخرفي وتقنياته أن تم بناء أغلب المساجد الجامعة بناء متينا وتسويرها بأسوار خارجية عالية داخلية قوية كأنها قلاع حربية متينة[75]، وبرز نتيجة هذا الفن المعماري اتجاهات في عمارة المساجد تجمع بين الأخذ من المحلي والاقتباس من الأجنبي وتزاوج بين الماضي والحاضر، يقدم الجدول الآتي تعريفا ببعض نماذج هذه الاتجاهات العماراتية[76]:

الاتجاه	وظيفته
الاتجاه التقليدي المحسّن	توظيف أشكال معمارية من الماضي ومواد بناء محلية بصيغة تناسب الحاضر ومتطلباته.
الاتجاه التقليدي المحلي	استعمال أشكال ومواد محلية مع الاستغناء عن التكنولوجيا والتركيز على البعد الاجتماعي.
الاتجاه العثماني	استعمال الرخام والفسيفساء والبلاطات تأثرا بطابع العمارة البيزنطية، تكوين قاعة مقفلة للصلاة مغطاة بقبة مركزية ضخمة، وهو منعدم الصلة بالاتجاهين العربي والفارسي.
الاتجاه المعاصر تاريخيا	أخذ صور التقدم في التشييد وتكنولوجيته مع حفظ الانتماء التاريخي أشكالا وملامح.
الاتجاه المعاصر الكامل	توظيف مواد وتقنيات ونظريات فنية معاصرة، دون التعبير عن الشخصية المحلية للمنطقة.
الاتجاه المختلط	استعمال وزخارف بصور مكثفة وطرز مختلفة مع افتقاد الوحدة والنظام في العلاقات.

خاتمة:

تحظى المكونات المادية في المسجد بأهمية بالغة، ولا شك أن هذه المكونات لها أثرها الوظيفي والتفاعلي، بما يحقق التواصل والحياة الفعلية فيما بين المصلي والخالق عِبر المسجد، تلك الحياة التي تتعدد أوجه منافعها ومصالحها، ليس فقط على مستوى الأفراد، بل حتى على مستوى الجماعات والشعوب، مما يبرز أن المسجد يفترض فيه الانخراط الإيجابي في الحياة العامة للمجتمع الذي يضمه بما يعيشه المجتمع من مشاكل وعراقيل، وعليه، تكون المؤسسة المسجدية ركيزة كبيرة يعوّل عليها في عملية الإصلاح في شتى المجالات ذات الصلة بالإنسان الذي هو محور عملية الإصلاح وظيفة واستهدافا.

إن من أهم النتائج التي يمكن أن يخلص إليها هذا البحث هي أن المكونات المادية المسجدية مكونات قاصدة تخدم الإنسان وتقوي صلته بالمسجد، وبالتالي؛ فهي خالية من العبث، وليس نظامها ووضعها لمجرد التزيين وملء الفراغ، كما أن هذه المكونات عناصر ووسائل ذات أولوية في الرسالة المسجدية، لا يمكن أن يستغني عنها المسجد في أداء مختلف وظائفه الحيوية، وهي عناصر تتنوع بين عنصر الثبات وبين عنصر التجديد في أصول وتفاصيل كينونتها.

---

[1] نهج هذا التقسيم الأستاذ (رؤوف الأنصاري) في كتابه الموسوم ب: عمارة المساجد (ص28)، إلا أنه ذكر في هذه العناصر الرئيسة: الصحن (الفناء المكشوف) والمصلى والقبلة والمحراب والمنبر، لكن هذه المكونات لا تخلو من نظر، إذ كيف يتسنى أن نصطلح على مكون أنه رئيس وهو غائب في كثير من المساجد، كما أن القبلة عنصر غير مباشر يتضمنه المحراب باعتباره مكونا رئيسا فلا أدري لم أفردها هنا بالذكر، يضاف إلى ذلك أن الصحن من المكونات التي لا توجد إلا في النادر من المساجد على غرار المساجد العتيقة، بل ربما بدأت تختفي نظرا لتوسع العمران وكثرة البناءات التي أدت إلى تضييق المساحات الفارغة، وليس ذكر هذه المكونات أمرا حصريا، حيث هناك مكونات رئيسة أخرى لم يذكرها في هذا القسم، ومنها: الأبواب فهي المدخل الأساسي للمصلى.

[2] ورد في كتاب ((المساجد في المدن العربية)) ص207 ذكر عناصر مضافة في المسجد: المئذنة – القبة – العقد – العمود – الزخارف، والذي يظهر أن المئذنة مكون رئيس من مكونات المسجد، إذ أنها باتت حاضرة في تصميم أي

مسجد سواء في المدينة أو في البادية، ولعل تصنيفها في الكتاب ضمن العناصر المضافة في المسجد راجع إلى الأخذ بعين الاعتبار عامل التاريخ، فهي لم تكن متواجدة بالمساجد الأولى، نظرا للبساطة التكوينية الأولية التي ميزت تلك المساجد لعدة خصوصيات سيأتي الحديث عنها في وقتها.

[3]الإبانة في اللغة العربية: (سلمة بن مسلم العوتبي الصحاري)، ج4/ ص316/ 317، تحقيق: عبد الكريم خليفة-نصرت عبد الرحمن-صلاح جرار-محمد حسن عواد-جاسر أبو صفية، وزارة التراث القومي والثقافي، مسقط، سلطنة عمان، ط1، 1420هـ/ 1999م.

[4]مختار الصحاح: (محمد بن أبي بكر الرازي الحنفي) (666هـ)، ص69، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية-الدار النموذجية، بيروت-صيدا، لبنان، ط5، 1420هـ/ 1999م.

[5]اشتغلت في المبحث الثاني من رسالة الماستر على مفهوم المحراب باعتباره حقلا دلاليا للمسجد في القرآن الكريم، والمعاني المرصودة هي ثمرة وخلاصة لما اشتغلت عليه في هذا الإطار.

[6]المدخل: (ابن الحاج المالكي) (737هـ)، ج2/ ص271، دار التراث، بدون طبعة ولا تاريخ.

[7]زاد المتعبد في أحكام وآداب المسجد: (حمدا ولد التاه)، ص27، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1424هـ/ 2003م.

[8]المحاريب العراقية منذ العصر الإسلامي إلى نهاية العصر العباسي: (نجاة يونس الحاج محمد)، ص29 بتصرف، وزارة الإعلام، بغداد، الجمهورية العراقية، 1976م.

[9]المحاريب العراقية منذ العصر الإسلامي إلى نهاية العصر العباسي: (نجاة يونس الحاج محمد)، ص29 بتصرف.

[10]قطوف من تاريخ المسجد النبوي الشريف: (سليمان بن صالح العبيد)، ص17، دار التوحيد، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1427هـ/ 2006م.

[11]المرجع السابق: ص29/27 بتصرف.

[12]عمارة وتوسعة المسجد النبوي الشريف عبر التاريخ: (ناجي محمد حسن عبد القادر الأنصاري)، ص61، نادي المدينة المنورة الأدبي، ط1، 1416هـ/ 1996م.

[13]المحاريب العراقية منذ العصر الإسلامي إلى نهاية العصر العباسي: ص52.

[14]مصنف (عبد الرزاق الصنعاني) (211هـ): كتاب الصلاة، باب صلاة الإمام في الطاق من رواية ابن التيمي عن أبيه، رقم:3901، ج2/ ص412.

[15]إعلام الساجد بأحكام المساجد: (محمد الزركشي) (794هـ)، ص364، تحقيق: مصطفى المراغي، مطابع الأهرام، القاهرة، مصر، 1431هـ/2010م.

[16]المدخل: ج2/ ص272.

[17]العمارة الإسلامية بإيران: (غادة عبد المنعم الجميعي)، ص506/505 بتصرف، كلية الآثار، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، 2012م.

[18]أي: المستشرقين.

[19]المحاريب العراقية منذ العصر الإسلامي إلى نهاية العصر العباسي: ص36.

[20]المدخل: ج2/ ص272، وسبقت الإشارة إلى هذا الاقتباس في إحدى الصفحات السابقة من هذا العنصر.

[21]المرجع السابق: ص21.

[22]المساجد في المدن العربية: المعهد العربي لإنماء المدن، ص193/ 194 بتصرف.

[23]سيأتي الحديث في مطلب خاص حول الزخارف في المسجد وما حولها من نقاش.

[24]قطوف من تاريخ المسجد النبوي الشريف: (سليمان بن صالح العبيد)، ص18، دار التوحيد، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1427هـ/ 2006م.

[25]عمارة وتوسعة المسجد النبوي الشريف عبر التاريخ: (ناجي محمد حسن الأنصاري)، ص75، نادي المدينة المنورة الأدبي، ط1، 1416هـ/ 1996م.

[26]سنن ابن ماجه (273هـ): كتاب الآذان والسنة فيه، باب بدء الأذان، رقم: 707، ج1/ ص233، تعليق محمد فؤاد عبد الباقي: في الزوائد في إسناده محمد بن خالد. ضعفه أحمد وابن معين وأبو زرعة وغيرهم، وقال الألباني: ضعيف وبعضه صحيح.

[27]مساجد في السيرة النبوية: (سعاد ماهر)، ص87، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1987م.

[28]القباب والمآذن في العمارة الإسلامية: (عبد الكريم عزوق)، ص55/ 56، جامعة الجزائر، حيولى المطبوعات، الجزائر، 1996م.

المساجد في المدن العربية: المعهد العربي لإنماء المدن، ص208/ 213 بتصرف، وزارة الإعلام، 1410هـ/ 1990م.

[29]العمارة في صدر الإسلام والعصر العباسي (آثارنا الإسلامية): (سوسن سليمان يحيى)، ص160، دار نهضة الشرق، جامعة القاهرة، مصر، ط1، 1420هـ/ 2000م.

[30]الفن المعماري والهندسة التشكيلية العامة في المساجد الإسلامية والمراقد المقدسة: (شاكر هادي عصيب)، ص19 بتصرف، دار الحرية، بغداد، العراق، 1397هـ/ 1977م.

[31]المرجع السابق: ص18.

[32]القباب والمآذن في العمارة الإسلامية: (عبد الكريم عزوق)، ص50.

[33]المرجع السابق: ص51/ 53.

[34]القباب والمآذن في العمارة الإسلامية: (عبد الكريم عزوق)، ص51/ 53.

[35]القباب والمآذن في العمارة الإسلامية: عبد الكريم عزوق، ص54.

[36]شذرات من تاريخ المسجد الأعظم بآسفي: (كريدية إبراهيم)، ص58، دار وليلي، مراكش، المغرب، ط1، 2005م.

[37]مقاييس اللغة: (أبو الحسين أحمد بن فارس) (395هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، كتاب النون، باب النون والباء وما يثلثهما، ج5/ ص380، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1399هـ/ 1979م.

[38]المساجد في المدن العربية: المعهد العربي لإنماء المدن، ص205/ 206 بتصرف.

[39]فتح الباري شرح صحيح البخاري: (ابن حجر العسقلاني) (852هـ)، ج2/ ص400، دار المعرفة، بيروت، 1379هـ.

[40]المساجد في المدن العربية: المعهد العربي لإنماء المدن، ص194، وزارة الإعلام، 1410هـ/ 1990م.

[41]المسجد ونشاطه الاجتماعي على مدار التاريخ: (عبد الله قاسم الوشيلي)، ص40، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط1، 1410هـ/ 1990م.

[42]سنن أبي داود (275هـ): كتاب تفريع أبواب الجمعة، باب في اتخاذ المنبر، رقم: 1081، ج1/ ص284.

[43]صحيح البخاري: كتاب الجمعة، باب الخطبة على المنبر، رقم: 917، ج2/ ص9.

[44]قطوف من تاريخ المسجد النبوي: (سليمان بن صالح العبيد)، مكتبة الملك فهد، المملكة العربية السعودية، ط1، 1427هـ.

[45]عمارة المسجد النبوي الشريف: (محمد حمزة إسماعيل الحداد)، ص43 بتصرف، جامعة الملك سعود، مكتبة الملك فهد، ط1، 1419هـ/ 1999م.

[46]مساجد صنعاء (عامرها وموفيها): محمد بن أحمد الحجري، ص32، إصدار وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، اليمن، 1425هـ/ 2004م.

[47]إعلام الساجد بأحكام المساجد: (محمد الزركشي) (794هـ)، ص374.

[48]المساجد في المدن العربية: ص196/ 202 بتصرف.

[49]مساجد القيروان: (نجوى عثمان)، ص190، دار عكرمة، مكتبة الأسد، دمشق، سوريا، ط1، 2000م.

[50]مساجد صنعاء (عامرها وموفيها): (محمد بن أحمد الحجري)، ص40، إصدار وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، اليمن، 1425هـ/ 2004م.

[51]إعلام الساجد: ص375 بتصرف.

[52]الكوكب الوهاج والروض البهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج: (محمد الأمين بن عبد الله الأُرَمي العَلَوي الهَرَري الشافعي)، ج7/ ص243، دار منهاج، دار طوق النجاة، بدون بلد، ط1، 1430هـ/ 2009م.

[53]المسجد الجامع نعت للمسجد ونوع أساس من أنواعه، إذ يعبر عن مساحة كبرى للفضاء الداخلي للمسجد تمكن من اجتماع أكبر للوافدين عليه، ومن أهم الشعائر التي تميز المسجد الجامع إقامة مراسيم صلاة الجمعة، حيث يحج إليها الناس من أماكن شتى تختلف من حيث القرب والبعد من المسجد.

[54]البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: (محمد ابن عذاري)، ج2/ ص98، تحقيق: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط3، 1983م.

[55]المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: (يحيى بن شرف النووي) (676هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1392هـ.

[56]البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان: (عماد الدين الأصفهاني) (597هـ)، ص107، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1، 1423هـ/ 2002م.

[57]مساجد في السيرة النبوية: (سعاد ماهر)، ص82، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987م.

[58]مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: (جمال الدين محمد بن سالم المازني التميمي) (697هـ)، ج4/ ص197، تحقيق: جـ1، جـ 2، جـ 3: الدكتور جمال الدين الشيال، جـ 4، جـ 5: الدكتور حسنين محمد ربيع -الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب والوثائق القومية -المطبعة الأميرية، القاهرة، مصر، 1377هـ/ 1957م.

[59]يلاحظ أن المقالات والمراجع التي اهتمت بمعالجة القضايا المرتبطة بالمسجد لم تعن بالتطرق للمقصورة ضمن مكونات المسجد، لذلك سلكت منهج الملاحظة والتتبع في رصد هذه الأوجه والوظائف التفاعلية المتعلقة بها.

[60]المدخل: (ابن الحاج) (737هـ)، ج2/ ص214، دار التراث، بدون طبعة ولا تاريخ.

[61]إعلام الساجد بأحكام المساجد: ص336/ 337.

[62]المساجد: (حسين مؤنس)، ص29، عالم المعرفة، عدد 37، الكويت، 1981م.

[63]الفن المعماري والهندسة التشكيلية العامة في المساجد الإسلامية والمراقد المقدسة: (شاكر هادي غضيب)، ص10، دار الحرية، بغداد، العراق، 1397هـ/ 1977م.

[64]القباب والمآذن في العمارة الإسلامية: ص14.

[65]المرجع السابق: ص16.

[66]المساجد في المدن العربية: ص222/ 223.

[67]المرجع السابق: ص226.

[68]الفن المعماري والهندسة التشكيلية العامة في المساجد الإسلامية والمراقد المقدسة: ص16/ 17 بتصرف.

[69]عمارة المساجد-تصميم وتاريخ وطراز وعناصر-: (محمد ماجد عباس خلوصي)، ص15، مطابع سجل العرب، بدون بلد، 1998م.

[70]مؤسسة المسجد (الرسالة الحضارية والوظيفة الاجتماعية): ص29.

[71]مصنف عبد الرزاق الصنعاني: كتاب الصلاة، باب تزيين المساجد والممر في المسجد، رقم:5129، ج3/ ص153.

[72]مساجد مدينة دهلي في الهند (دراسة أثرية معمارية): (سعد بن زيد بن محمد الحليبة)، ص63، الدار العربية للموسوعات، ط1، بيروت، لبنان، 1430هـ/ 2010م.

[73]عمارة المساجد (دراسة في تاريخ عمارة المساجد خلال العهود الإسلامية): (رؤوف الأنصاري)، ص29، دار النبوغ، بيروت، لبنان، ط1، 1417هـ/ 1996م.

[74]العمارة الإسلامية بإيران: ص501.

[75] الفن المعماري والهندسة التشكيلية العامة في المساجد الإسلامية والمراقد المقدسة: ص14 بتصرف.

[76] اتجاهات عمارة المساجد في العصر الحديث: (عصام الدين عبد الرؤوف حنفي)، ص13/ 44 بتصرف واختصار كبير، جامعة أم القرى، مكتبة الملك فهد، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1422هـ/ 2001م.